PISSN : 2571-9904 - EISSN : 2602-7763

تفكك الفضاء العمومي – رؤية نقدية

Dissolution of Public Sphere - Critical Vision

محمد اغولايش [1,*] ، العربي بوعمامة [2]

[1] جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم / مخبر الدراسات الاتصالية والإعلامية (الجزائر)،

mohamed.aghoulaiche.etu@univ-mosta.dz

[2] جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)، bouamama.larbi@univ-mosta.dz

تاريخ الإستلام: 24/ 08 / 2021 **تاريخ القبول**: 24/ 09 / 2021 **تاريخ النشر**: 24/ 10 / 2021

ملخص: اختبرت مدرسة فرانكفورت منذ عام 1923 تأملاتٍ فلسفية ذات قابلية سريعة للجدل باتت مصدراً لانشقاق الكثير من المُنظرين، وحيث أننا نعتمد من نماذج هذا التفكير استثمارا نقديا.. ترتكز الدراسة على البحثِ في أهلية مشروع الفعل التواصلي وأخلاقيات النقاش لـ" يورغن هابرماس " باعتبارها تقاليدا جامعة لأنساق الفلسفة العقلانية في تصور المدرسة.

وإذ يؤسس الفضاء العمومي أبرز مشاريع معهد الأبحاث الاجتماعية كمقاربة بارزة لـ " إتيقا التواصل " أحاطت بالنظرية الاجتماعية هجمة تشكيك في مسلماتها الجزئية أنقذتها من العواطف الأفلاطونية ومنظومة قيم المثالية.

الكلمات المفتاحية: إتيقا التواصل ؛ الاستعمال العمومي للعقل؛ الفضاء العمومي؛ ما بعد الفضاء العمومي؛ مدرسة فرانكفورت.

Abstract: Since 1923, Frankfurt School has known philosophical considerations that are quickly controversial, and which have become a source of division for many theorists. Actually, we invest from the models of this thinking critically.

The study is based on researching the eligibility of " Jürgen Habermas " project of communicative action and discourse ethics, as traditions gathering the systems of rational philosophy in the school perception.

While the public sphere establishes the main projects of the social research institute as an outstanding approach to the " ethics of communication ", the social theory was prone to loads of questions in its partial postulates, which saved it from Platonic passions and from the idealism values system.

Keywords: *beyond public sphere; ethics of communication; Frankfurt School; public sphere; public use of the mind.*

* **محمد اغولايش**

I. مقدمة

في مواجهة محدودية حلول الحداثة للمشكلات الإنسانية لم تكن حركة التنوير بداءة من " إمانويل كانط Emmanuel Kant " و " جورج فيلهم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel " إلى فلاسفة معهد الأبحاث الاجتماعية بألمانيا تعترف بامتلاك النزعة الوضعية للحقيقة في تحليل المعرفة والظواهر السياسية، فضلا عن ذلك تبنت نقدا عنيفا للعلوم البورجوازية وطعنت في مسلماتها استنادا إلى إعادة إنتاجها لنظريات تقليدية توافق تصور الأنظمة وتزيف الواقع، ولعل ما يميز جوهر التفكير النقدي هو تخليه عن المركبات الكلاسيكية في فهم النقاش العام والرجوع إلى الواقعية من خلال منهجية العقلنة لتفسير آليات الهيمنة وإنتاج مقاربات غذّتها آثار النازية والحرب العالمية الثانية، بحيث وجدت المدرسة النقدية نفسها مجبرة بعد العودة من الهجرة على جمع عناصر الدولة الوطنية ودمجها في فضاء يرتبه التفاهم بعيدا عن الصنمية وأمراض السلوك السلطوي والعنف، وقد احتضنت في مشروعها أبز نقاد المجتمعات الاقتصادية أمثال " هنريك غروسمان Henryk Grossman " و" كارل غرونبرغ Karl Grünberg " وصولا إلى " ماكس هوركهايمر Max Horkheimer " و" يورغن هابرماس Jürgen Habermas " الذي عاد إلى ترتيب الجدل العقلي للميتافيزيقيا وما ورائها في آخر مجلد له "Auch eine Geschichte der Philosophie - تاريخ الفلسفة مرة أخرى" نوفمبر 2019، أبان في مضمونه الأسس الفلسفية لأبر أفكاره، فالنقدية كمشروع حديث للمعرفة الإنسانية وحالة ثورية عملت على فوضى الفوارق الطبقية والاستعباد من خلال اعتمادها على استقلالية روادها عن الأنظمة السياسية، وهذا ما نستشفه من وراء أبحاث الجيل الأول والثاني والثالث ومقارباتهم الخالية من الزيف والإثارة القائمة على الحرية والديمقراطية وقوة العقل والنقاش وأخلاقيات التواصل، وما إن انخرطت في جوهر أطروحة الفضاء العمومي حتى انطلق تيار ساخن " الجيل الرابع " في تفجير تناقضات بناء الديمقراطية بعيدا عن افتراضات سبعينيات القرن الماضي، تستجوب حدوده المادية والنفسية والمستويات المعيارية للنقاش في عصر التقنية، وهذا ما جعل من المدرسة تخلص مجددا من قبضة الدوغمائية المحتملة، غير أن مسألة تفكك الفضاء العمومي أثارت اختلالات جذرية تكمن في تحلل النموذج في مستويات ستؤدي مستقبلا إلى الصراع بشأن مسلماته الرئيسية بدل الاتفاق حولها، وذلك ما يدفعنا إلى البحث عن أجوبة صارمة لإشكاليات أبرزها .. هل بات التمرد النقدي داخل مدرسة فرانكفورت حاجة ملحة لإعادة التأسيس الفلسفي للفضاء العمومي ؟ وما هي التصورات الحديثة لهذا التأسيس ؟ وكيف ينشأ تفكك الفضاء العمومي من صلب التحول الكلاسيكي لإيتيقا التواصل ؟

1

أولا: كيف تتفاوض الجماعة، المصلحة.. والحقيقة ؟

اجتهد معهد الأبحاث الاجتماعية Institut Fur Sozialforschung في تهذيب العقل وإيديولوجيا المصلحة من خلال دراسة وتحليل البنية الاقتصادية للمجتمعين الاشتراكي والرأسمالي ونقد المعرفة و يوتوبيا التقانة بالاعتماد على سعفة من الإنتاج البحثي، وعمل الرعيل المؤسس للمعهد أمثال تيودور أدورنو Theodor W. Adorno وماكس هوركهايمر Max Horkheimer وجيل نيويورك 1934 – 1949 وكوكبة المشروع الثاني والثالث للمدرسة على رأسهم يورغن هابرماس Jürgen Habermas في مسعى بناء نظرية اجتماعية تجذف عكس تيار النزعة الاستهلاكية المخادعة والماركسية البربرية الجشعة وتعيد تكوين نموذج قائم على العقلانية والتواصل، ولم يكن الجدل البراغماتي الجامع للفلسفة والعلوم التجريبية لهذه المدرسة مقيدا وذاتيا من

البداية بل رست التقاليد على ثلاثة قواعد هي : تجاوز العقل الأداتي، متلازمة النقد وتحرير الفلسفة من عقدة المعرفة التجريبية.

وعلى اعتبار التعامل مع مشكلات نظريات النظم الاقتصادية كان واضحا من خلال تحليل السلوك اتصلت أبحاث المعهد بعلماء الاجتماع أمثال تالكوت بارسونز Talcott Parsons في اختبار " القيم الملزمة " و " القيم غير الملزمة " لتفسير شروط الاستجابة واحتياجات الفرد من الحقائق التي توجه سلوكه (Habermas and Luhmann, 1971: 251) ،اشتغل مؤسسة النقدية البراغماتية الأولى ماكس هوركهايمر Max Horkheimer 1895 -1937 في مؤلفه Traditionelle und kritische Theorie - النظرية التقليدية والنظرية النقدية - على الإجابة عن أسئلة محيطة بماهية فلسفة المعرفة يريد بذلك الاستعانة بالتفكير الرياضي في بناء النظرية كشرط خالص وطريق معبد بعناية من أجل تفسير سليم للظواهر السوسيولوجية على العكس من مناهج الحدس اللصيقة بمقاربات " الدجل والطوباوية " ويتحدث في مؤلفه Dialektik Der Aufklärung - جدل التنوير - عن طموح العقل الدائم في الفرار من البرجوازية المتوحشة التي تستعبده وتلغي اختياراته لتوجيه جهده نحو نظام واحد. (W.Adorno and Horkheimer, 2002 : 23)

أهلت المبادئ الرئيسية للمشروع النقدي تحليل عقدة الماهية حيث نكتشف ظل ويليام جيمس William James الفيلسوف الأمريكي منعكسا على أثر هوركهايمر في تجنب السقوط وسط وهمية جدلية - العقل " اليقين " و التجريب " الشك " اعتبارا من تلك العلاقة بين الموضوع والشاغل لدور الباحث عن " الوضوح " قبل أن نقف عند مصطلح الحقيقة، فإذا غدا التواصل فعلا لابد وأن يُحدث اتفاقا بين أفراد جماعة ما.. فإن الحقيقة في صلب هذا الاتفاق هي تلك القناعة المشتركة، وإن تمكنت الجماعة من تجاهل البواعث العقيدية والطائفية وتهذيب السلوكيات المتحدرة من الآثار السحرية للمقدسات وتلاشت عواطف الذاتية وعقائد الاستعلاء والتطرف والحذلقة الخطابية وكل احتمالات الفردانية الأخرى، حتى نتمكن من حسم الاختلاف والاكتفاء بقوانين أخلاقية تتفاوض في نظامها الجماعة كـ " كائن " متصوف و " راشد " لا يرتكب الخطيئة ويبحث سوى عن الفضيلة لا المصلحة الجشعة.

يميز هابرماس في نظرية الفعل التواصلي بين البحث عن الحقيقة كمعرفة أو الاتصال من أجل المصلحة والوظيفة التعبيرية للإتصال (Habermas, 1982 : 372) ، ويعرف المصلحة على أنها : " الرضى الذي يربطنا مع تصور وجود موضوع ما أو وجود فعل ما، .. تشترط مسبقا احتياجا ما أو أنها تنتج احتياجا ما. " (هابرماس، 2001 : 232 - 233)

نسأل : هل الأخلاق كفيلة بحماية الحقيقة ؟ كيف نمتلك الحقيقة ؟ نحن بحاجة إلى الحرية أم الشجاعة في طريقنا إلى الحقيقة ؟

إن سؤال الحقيقة هو جوهر جدلية النقاش لا الأخلاق في نظري،.. فالعدل والمساواة بين المجادلين لا يحسمه التواصل ولا يتصل بـ " إتيقا الحقيقة " إلا إن كانت مجرد عواطف شبيهة بمشاعر الإنسان وعقائده فتلك ليست بحاجة إلى حجج جديدة سوى تلك التوقعات الأسطورية التي تجعلنا دوما في مواجهة الخيال والدهشة والمضاربة في عالم الحدس حينئذ لا فائدة من امتلاك الشجاعة لمجادلة حقيقة لا سبيل للبرهنة عليها وإن تجلت في مستويات وعي " العقل المطلق " بالتاريخ، ويتتبع هابرماس الفيلسوف يوهان كريستوف فريدريش فون شيلر Johann Christoph Friedrich Von Schiller في تصوره عن انسجام والتوازن مشترطا

التركيز على القيم الجمالية المشتركة بين الفرد والجماعة على عكس الاهتمام بالمعارضة المتبادلة التي تغذي الاغتراب والعنف. (Habermas, 1985 : 63)

مع دفع مدرسة فرانكفوت بـ " إتيقا النقاش " كمولد للحقيقة لا يمكننا الانطلاق بالغاية في اتجاه الأداة، أو البدا بالتفاهم قبل الخطاب والمسؤولية هنا يأهل بها يورغن هابرماس ليعترف لنا هل يسعى من وراء عقلنة التواصل إلى أخلقة النقاش أم أخلقة الحقيقة ؟ ومن يختار في المقدمة ؟!

لعل "رينيه ديكارت René Descartes " والمناطقة اكتفوا بفتل ملكة الشك لحسم مسألة الحقيقة بالانتصار للإنسان من الطبيعة، بيد أن التفكير الرياضي للكوجيتو كان له دور في بناء نظريات اجتماعية ضلت مستعدة لنقد المعرفة الديكارتية نفسها، ومنذ اجتماع الإنسان وتعود البشر على سنن الطاعة للقوانين الوضعية المنقذة لحالة " القطيع " أحدث " الحس الجمعي " حافزا لإضعاف النفس أمام الجماعة، غير أن الإنسان بقي وفيا أكثر للانتقام إذا لم تنصفه جماعته واستمرت في مطاردة نزواته والحصيلة هي الحروب والتخلص من الخوف المزعج والعقاب على عكس البشر المغلوب على أمرهم الميالين إلى منح الحق للجماعة في مناقشة حكم سيقع ضدهم دون التمرد أو التشكيك في مثالية حقيقة القوانين.

يحاول " يورغن هابرماس " أن يقيم " الحقيقة " على التواصل والمحاجّة (مصدق، 2005 : 16)، ولا شك في أن معارضة الجماعة الالتزام بقواعد نموذج الفضيلة " أخلاقيات التواصل " عارض من موانع صياغة الحقيقة، ودون ذلك لا يعدو المجال العام سوى أن يكون على الأرجح فضاء للتسلية قد لا يتجاوز خطابه أحاديث نسوة الحمامات الرومانية، ولم يكن هذا التوجه البعيد عن التعقيد قادرا على التوصل إلى الإجابة عن سؤال الزمن كم ستستغرق الإنسانية من الوقت في المحاجّة والتنقيب عن الحقيقة !؟ وهل ميدان تطور المعرفة من احتل مساحة جادة في المجلدين الأخيرين لهابرماس " تاريخ الفلسفة – 2019 " يبرر معقولية الحقيقة أم بانورما ميتافيزيقية في النهاية تقودنا إلى صيرورتها فحسب،.. ليعود الاتفاق على ما يبدو أن الحقيقة هي " ملك الجماعة " وليست مطلقة، حتى تستمر حرية التطاحن حولها !

إن جوهر التحول البنيوي المؤسس للفضاء العمومي عند " يورغن هابرماس " هو " الفعل التواصلي " وفي حدود بناء فكرة نقاش تقوم شبكة المعاني الإنسانية على الجدوى من استقصاء " المنفعة " التي تولدها اللغة كمنبع للعقلانية والديموقراطية وبالنسبة له فإن مواجهة السلطة ونزاعات العصب وجها لوجه أمام فلسفة الأخلاق السياسية يستلزم نقاشا لصياغة الصواب، فالقانون المقيد للأخلاق يحاصر ما يحتاج إليه الفرد من الحرية ويخضع وصوله إليها للنظام الدستوري المشرع للقانون نفسه (Habermas,1978 : 110) ، فهل ستصل بنا القواعد الأخلاقية إلى فهم المصلحة كظاهرة أم مغزى ؟ وفي مسألة اللغة المتشيئة كيف سنواجه تدهور ثقافة الحوار وتعالي ثقافة الشك والطعن و غرائز الهيمنة ؟

يرى هابرماس أن المعرفة هي افتراضات مبررة وأن امتلاك الحقيقة لا يتجاوز امتلاك التبرير، فيما يبدو لنا العكس .. فالتبرير والمحاجّة ليس بمقدورهما في سياقات متعددة وقف أو تغيير اتجاه جدل أنهته قناعات تاريخية ثابتة في العموم أو نقض حقيقة تجريبية أو سماوية، وإلا فستتحول المناقشات إلى مضايقات للمعرفة وفي متناول البداهة لا العقل تعود بنا إلى مزاعم جديدة لا تعترف بحقيقة كل الحقائق ومن ثم تتحول ديمقراطية التداول بين المهمشين إلى ذريعة للعدالة ونزعة مغالاة ومشروع للهرطقة.

إن التضييق على الحريات بحجة أسبقية الجماعة ظل مسيطرا على الحياة السياسية إلى أن أدرك الإنسان الأفق المحدود للأنانية وعاد أدراجه خائبا من حركات التنوير والثورات المناهضة للجماعة، فالمعايير

الزائفة لتوجهات " الأقليات " التي تحولت إلى ممارسة عاطفية " هولوكوستية " ومنهج حمائي " سامي " أوجدت " أزمة الحرية والديموقراطية " وحتى إن منحت للنقاش خطابا ثوريا تخطى حوار الهامش نحو فضاء مجتمع الاتصال كما تناقشه مدرسة فرانكفورت إلا أنه لا يمكنها السير في اتجاه واحد مع قاعدة " اجتناب ترك أحد ما على قارعة الطريق ".

ثانيا: الأخلاق في معترك النظرية وسؤال اللغة

لايفسر الخطاب الاستخدام العمومي للغة حتى وإن التزمَ بالطبيعة الاتصالية لها.

مع بداية تشريع القوانين في روما القديمة والعالم انفجرت بطولات التمرد على السلطة التقليدية كالدين والتاريخ، وظهرت الجماعات المسيطرة كـ " البروتستنتينيين " الألمان على سبيل مثال ماكس فيبر المستعبدة لـ " الكاثوليكيين " في الحياة الاقتصادية، وكانت تقودها في ذلك أخلاق الحرية " الناسوتية "، وقد فصلت فلسفة الأخلاق في النظرية الألمانية متأثرة بالمادية اليهودية بين نماذج المجتمع الإنتاجية والنظام التواصلي، فهابرماس يرى أن العمل واللغة يسبقان الإنسان والمجتمع (هابرماس، 2002 : 75)، أما فلسفة اللغة فهي الأقرب إلى جوهر اعتراف النظريات الاجتماعية بإيديولوجية الفعل التواصلي نتاج العقل الحديث ومبتكر التقنية..المنطلق الحداثي لهيدجر في أطروحته حول نهاية ميتافيزيقا الذاتية .

اهتم هابرماس في طرح نظريته القائمة على المفاهيم الأساسية في الفلسفة القديمة والمعاصرة على الاجتهاد في اتجاه واحد وفيٍّ للأخلقة والمبادئ الديموقراطية المثيرة لعمومية النقاش، ولكن هذا التحدي ظل عاجزا عن توجيه " المتعقلين "، والمواطن الناضج بالنسبة لهابرماس لا يختلف كثيرا عنه عند كانط فكلاهما يتصرف بحرية بعيدا عن الحصون المفروضة بمناسبة الانتماء الاثني أو اختلاف في عناصر اللغة، ولا يعثر تقدمه في تحقيق رغبته في المشاركة السياسية سوى دافع – سلطوية الطبيعة البشرية على السلوك، "اللاعقل " عند هابرماس أو " اللاتنوير " في المذهب الأخلاقي لكانط يمثلان الحدود الأولى لشرارة الانفجار على قيود الحرية، و" مشروع السلام الكانطي" .. حتى لا نعلق كثيرا عن الأصول النظرية عند هابرماس كان وبقي لبنة لأهرامات هابرماس ذات " الطابع التوجيهي " وهي الطريق المصفوفة بأشجار فلسفة الأخلاق التي توفر الظل وتمد بالضوء المشاريع الحداثية من مشروع لآخر، ولكن ماذا إن تساءلنا هل هذه الطريق مستمرة أم مسدودة ؟!

اهتمت النظريات الاجتماعية الحديثة بدراسة المجال التواصلي للعقل وفسرت أفعال البناء اللغوي بتحليل أسهمَ في بيان الفروق في ممارسة الحريات وأدوار وسائل الاتصال في إنقاذ الوعي من الزيف والتحكم والسيطرة وأمراض الكونية، ولكن اللغة ظلت" أداة " لا " غاية " بالنسبة للكثير من ورثة الفلسفة التقليدية كالوضعية بعيدا عن الاعتراف باللغة " ككائن " منفصل عن الوعي لا يخضع لقاعدة أخلاقية ولا يمكن للفضاء العمومي اختزالها في " الكلام " أو أخلاق النقاش، كما فعلت أبحاث شارلز موريس Charles W. Morris و شارل ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce مع التداولية الألسنية والمقاربات الأخرى في علم اللغة المتبناة من يورغن هابرماس كأعمال جون روجرز سورل John Searle ولودفيغ فتغنشتاين Ludwig Josef Johann Wittgenstein وهي من المباريات الفكرية المحتدمة حول أفعال اللغة التي لازمت النفق والتوجه الطبيعي ولم تتحاور مع الاستدلال المتجاوز للنموذج الكلاسيكي، وقد أشار يورغن هابرماس في إجابته على

باسكال إنجل Pascal Engel عن سؤال إلحاق الفلسفة التحليلية المعاصرة بالمنعرج الألسني أو اللغوي أن الألسنية هي محور متفاعل مع العقل ولا ينفصل عنه (هابرماس، 2010 : 51)، ما يجعله مهتما بوظيفتها في عمق الواقع التداولي والشمولي ولا يفكر في المخاطرة بوضع اللغة في " مختبر" بنائية المنطوق ومشكلات الخلط بين أخلاق الكلام وأخلاق المناقشة وسلطة اللغة على الصحة والخطأ واستقلالها عن الوعي والمعرفة في مسألة أدبيات المحاجّة، وهو لم يفرق في الفضاء العمومي بين " المنشغلين بالنقاش" و" المنشغلين بالإنصات " وليست اللغة هنا سوى" أداة للفهم " تماما كالنظام الرقمي للغة الحاسوب الثنائية : صفر 0 وواحد 1.

وقد تبنّى حق اللغة في تفسير علاقات براكسيس الحياة اليومية وتمثلاتها التواصلية (هابرماس، 2001 : 198) ،ولاشك في أن ما يطرحه أفرام نعوم تشومسكي Avram Noam Chomsky من معادلات اللغة الإنسانية والمجموعات المصوغة لتمثلها عقليا ودرجة تكافؤ كل فرد في إسقاط الحوار على الواقع ما يدفع للتريث قليلا قبل دراسة تلك التوقعات أو الآثار الناجمة عن الاختلاف داخل الفضاء العمومي وحتما فإن للغة مشكلات ديكارتية تجعل من النقاش خلافا عن " الخطاب " حلبة نظامٍ لا تضبط تقاليد المتحدثين بين زواياها غير الأخلاق وليس سواها على الإطلاق، وأما معضلة الأخلاق في نموذج هابرماس فهي " السلوك " بحيث لم يتفق معه الكثير من المفكرين حول مفهوم الـ " إتيقا " Ethics والأسئلة المرتبطة بنطاقها السياقي تماما كما فعلت المفكرة البارزة سيلا بن حبيب Seyla Benhabib وقدمت عرضها في كتاب Situating the Self بعيدا عن فلسفة الأنوار الكانطية.

لم يترك هابرماس التاريخ في منأى عن المسألة الأخلاقية في تصوره للمشاعر والذات والسلوك وهو يناقش المسؤولية الإنسانية للتعديلات الوراثية للجينوم البشري، وصناعة التنوع البيولوجي أو قبل الشخصي - التدخلات الخلقية على الطباع الأخلاقية (هابرماس، 2006 : 58) وأضاف في طرحه هذا إرادة الآلة على الجماعة في تصنيع الأفراد معتمدا على العلوم التجريبية لتحاشي إبعاد منطق المركبات الخارجية على الأخلاق متسائلا عن الطريقة التي يفترض بها فهم الأخلاق وحدودها في مؤلفه Die Zukunft der menschlichen Natur. Auf dem weg zu euner liberalen Eugenik ? مستقبل الطبيعية البشرية . نحو نسالة ليبيرالية ؟ المطبوع قبل 15 سنة وتحدث عن المحاجّة السليمة معتبرا أن النقاش في المسائل الأخلاقية أقل فشلا من النقاش في المسائل السياسية المرتبطة بقياسات معيارية مختلفة من جماعة إلى أخرى على عكس الطبيعة الكونية لمشكلات " الأخلاق "، لم يضف ما يستحق التعليق على غرار فلاسفة الأنوار ولم ينظر إلى " العدل – السلام – العنف ... وغيرها " كأخلاق مستقلة، .. بينما أصبح على هابرماس محتما أن يفرق بين السلوك والأخلاق كلما جاء في ذكر الفضاء العمومي والنقاش العمومي" كنظام " وليس " كأطروحة " متروكة للفحص وإساءة الفهم والنقل كما تتسم به العديد من البحوث في جامعات الدول ضعيفة الحركة التعليمية، وإن كانت " الحرية والإكراه " مجرد قيم كانطية فـ " النقاش والمحاجّة " ليستا سوى تصورات هابرماسية مستقلة عن الفعل الأخلاقي.

يمثل متغير اللغة عائقا إنسانيا لا ينبغي أن يستثنى من بحوث استكشاف نظرية الفعل التواصلي وأخلاقيات النقاش فبناء مجتمع الاتصال الحديث هو نتاج الإبداع في أنظمة اللغة واستعمالها، خلافا عن الاستهلاك اليومي لها .. العاجز عن إثارة الأفكار في المناقشة والانسجام مع العقل (تشومسكي، 1990 : 191) .

فهل يمكننا القول أن النظريات الاجتماعية القائمة على الفلسفة غير صالحة لمعالجة جدل المفاهيم في مختبر الواقع أو الممارسة ؟ حتى وإن كانت نظريات تحت مسميات العقلانية ؟ أو لأنها لا تعدو أن تكون تيارات تنتقد نماذج سبقتها لا أكثر .. لترفضها بمشروعية البحث تفاديا لأزمة تطابق النظريات ؟

إن ما يميز الديموقراطيات في العالم هو الصراعات والخطابات المتناقضة وعلاقات القوة والمفاوضات والمواقف السياسية المراهقة،.. لم تتمكن القيم في الجماعة الواحدة من إرساء التكافؤ وإيجاد حلول للسيطرة وحروب المصالح، لا اللغة ولا الأخلاق، وبقيت السلطة والثروة مقياسا وعنصرا أساسيا بل وشرطا للمساواة والاتفاق.

ثالثا: الفضاء العمومي وأشكال السيطرة التقنية

نشرت يومية " الغارديان The Guardian " البريطانية ديسمبر 2015 مقالا استقصائيا فضح استغلال بيانات خصوصية لمستخدمي موقع شركة تكنولوجيا في التأثير على وجهة أصوات المواطنين الأمريكيين في الانتخابات الرئاسية المقامة أواخر عام 2016 المنتهية بفوز مرشح الحزب الجمهوري دونالد ترامب *Donald Trump* (The Guardian, 11 Dec 2015)

وأحدث اعتراف المبرمج مارك زوكربيرغ Mark Zuckerberg أمام هيئة مجلس الشيوخ الأمريكي – الكونغرس Congress - خلال جلستي الاستجواب 11 إلى 12 أفريل 2018 حيازة مؤسسة كامبريدج أناليتيكا للاستشارات السياسية لبيانات لا يحبذ الجمهور مشاركتها أو التنصت عليها هزة شديدة في العلاقات الجيو سياسية - ومع أنه تفادى الإجابة المباشرة على أسئلة ممثلي الولايات .. ارتبط اعتذار" زوكربيرغ " حيال سوء الاستخدام وضعف النقاش من جانب هيئة الكونغرس حول المسائل التقنية المتعلقة بالتجسس واستهداف المعلنين للمبحرين في الفضاء بالنزعة السلطوية التي يُنظر بها اليوم إلى " يوتوبيا السيطرة الاجتماعية " المبشرة بتهالك " الخصوصية " مقابل الإمساك بخطام الشعوب، ودون أن يكون زهاء 87 مليون حسابا مستعدا لمواجهة حقيقة احتيال تاريخي فإنه لم يحدث أي اتفاق يقضي بتعويض الضحايا إلى يومنا هذا !

إن سياسة الشفافية وأخلاقيات الأنترنت المزعومة واتفاقيات حماية خصوصية القصّر لشركات التكنولوجيا التي اخطأ الباحثون بإطلاق لقب " منصات و - مواقع التواصل الاجتماعي " عليها كما صححه " مارك زوكربيرغ " ليست سوى وهماً، فلا أحد يبدو أنه مستعد للتخلي عن خدعة الحلول التي تتظاهر التقنية وكأنها تقدمها، وإن عدنا إلى وسائل الإعلام التقليدية كالتلفزيون فإنها التزمت بحمياتنا وبأقل ثمن أكثر من شركات الإعلان اليوتوبية اليوم، والتي أخذنا ندرك محدودية مساهمتها في البحث عن التفاهم ، وبشكل أكثر وضوحا وخطورة .. لقد تحول الفرد داخل الفضاء الافتراضي إلى عنصر معرّفٍ يسهل استهدافه من قبل جماعات المصالح، وإن كانت الشركات والدول تفرض رقابة قبلية وبعدية على محتوى " خطاب الكراهية، الإرهاب، العنف، .. " مستعينة بالذكاء الاصطناعي فإن منع الأخبار المزيفة المحشوة في تفاصيل الإعلانات يعد تحدياً ترفض الشركات الإفصاح عن مدى استعدادها للاستجابة له تماما كما فشلت في حماية البيانات.. ونحن نراقب عن كثب حالات التجسس العابرة للقارات المكتشفة.

لقد أطلقت التقنية حرية الاستعمال العمومي للعقل، وفرضت مستويات جديدة للتواصل مستجيبة لشروط التأسيس الديمقراطي للأنظمة ما بعد التمثيلية كالحق في التعبير واندماج الأقليات، وأسبقية الفرد على الجماعة، وعلى النحو نفسه شقت الطريق لبناء مجتمع الاتصال المزعوم حتى أصبح الإنسان مدينا للتقنية بمستوى الاختصار في الزمن والمكان وازدهار أشكال التفاعل وإقامة علاقات خارج الذات، وحيث ترفض التأويلية النقدية لهابرماس كل تجاوز وإعادة إنتاج للحياة الاجتماعية لا يخلّص الإنسان من السيطرة المنفلتة منه، يعود الفيلسوف لإتهام التطور التكنولوجي بعقدة " الفأس البدائية " التي يرى فيها آدمية

منغمسة في الأداتية لم يتمكن الإنسان من تجاوز هيمنتها عليه تماما كما يؤمن بذلك مارتن هايدغر Martin Heidegger.

إن ما يجعل القيم الموجهة للسلوك جوهرا لا يمت بأية صلة للتقنية هو مشكلات الأخلاق أو " الإبداع في الشر " غير القابل للانعطاف تقنيا فهو سيرورة معزولة عن التقدم التكنولوجي كحتمية طبيعية خالصة، إما بالنسبة لمحاولات إنقاذ النشاط التواصلي " الفعل الأداتي " من زيف الحياة التقليدية المتوارثة ومنظومات الصراع الاقتصادية في العالم فإن يورغن هابرماس وعلى الرغم من أنه لا يزال مشروعا رمزيا يرشح " أخلقة الفعل التواصلي " على نقيض النموذج الوظيفي " دعه يمر " الذي ينشطر بين المصلحة والأداتية.

وإذا كان التاريخ المعاصر محبلا بالمادة والوسائط المتكيفة مع بيئة سريعة الفضول للتوصل إلى الحقيقة لا يمكن لدفع النقاش في الفضاء العمومي نحو المساواة والحرية أن يترك التقنية في متناول أيادي مفلسة أخلاقيا وهو اختبار يتدارسه الفلاسفة المعاصرون بمسمى الفضاء العمومي الافتراضي برؤية تفوق اضطرابات السلوك إلى نقد المفارقة المتكررة للسيطرة على العقلاء في ظل أزمة الوعي الحديثة.

لقد أوجدت المعرفة التقنية إرادة لمواجهة دوائر الحوار المغلقة والممارسات البيروقراطية وأصبح من غير الممكن عرقلة التواصل واحتكار المراسلات ومنع تدفق المعلومات وفرض مناقشة قضايا دون أخرى والتحكم في تبادل شؤون الحياة السياسية بين أنظمة دولية مختلفة وغير متناسقة، ومع " تفوق الجدل على البرهنة " و " فشل العقلنة أمام الفطرة " تحول الإنسان إلى إنتاج الأسطورة بوسائط تقنية وصناعة التحرر كما وصفها الباحث الأمريكي ملفين ديفلر Melvin L Defleur بالمصطنعة للأذواق واللذة المزيفة إذ عدّلت هوية الأفراد العاجزين عن الإفلات من قبضة التقنية وشراك الاستلاب الحديثة المتحكمة في مستويات الخطاب.

إن البث والتحرير بلا قيود، برامج الحواسيب والهواتف واللوحات المحمولة وشبكات التواصل بقدر ما استجابت لترقية النقاش وبناء العلاقات الاجتماعية هزت مشاعر العالم بتغذية الصراعات الإثنية والسياسية المتقدمة في التاريخ وتصدرت قضايا الإرهاب والفوضى العابرة للقارات في العديد من دول العالم المواضيع المزعجة للبشرية الأكثر تداولا، ودفع خطاب الكراهية إلى تعميق الهوة بين الجمهور والفضاء العمومي من حيث أنه تحول إلى قالب لتبرير المواقف والآراء في المشكلات الكبرى دون مناقشة حلول لها، وكلفنا " الحق في الخصوصية " تضامر الوظيفة التداولية لوسائل الإعلام واعتلاء الوظيفة الانفعالية في نقطة مركز النقاشات، وبخلاف عدّ المحاولات السياسية النادرة لتجاوز نكسة التعايش السلمي والتوافق داخل الفضاء يمكننا القول أننا لم نحقق أي أثر أخلاقي مع فشلنا في حماية الخصوصية حتى مع تشريع توجيهات وقيود لشركات التكنولوجيا.

إن مجادلة خبراء التقنية حول الأدوات الحديثة التي أصبحت تحكم مجتمع الاتصال وحق المعرفة يطرح إشكالية - من يحرس الفضاء ؟ أو– من يحمي النقاش العمومي ؟ دون أن نمس بمسألة الأخلاقيات مهرب الجيل الأول لمدرسة فرانكفروت في التبرير ونمضي إلى صوغ جواب مقنع من وجهة نظر المسؤولية التكنولوجية وتحديات الرقابة الرقمية مقابل جشع تحقيق الأرباح.

رابعا: مدرسة فرانكفورت في مأزق

إن تجربة إعادة بعث مشروع الحداثة خارج ميراث الفلسفة التقليدية المتخلفة عن المقاربة النقدية المعاصرة مازالت رهينة تحولات الفعل السياسي وما أفرزته أزمة الديمقراطيات في العالم، وليس من شك أن رشاقة حركة التنظير عند الجيل الثالث لمعهد الأبحاث الاجتماعية Institut für Sozialforschung وصحوة " التيار الساخن " الذي ضم نشطاء بارزين في المدرسة النقدية دفعت تصورات يورغن هابرماس نحو نقيض " إتيقي " خارج حدود " وستفاليا " الضيقة والانطباعات الأفلاطونية لـ " العقلانية المثالية "، وحتى تلك الشروط " البوهيمية " لتأسيسه شابها الغموض والعجز وأصبح تداول مصطلح " العمومية " منفصلا عن حظوة النقاش بفعل الخلط بين أشكال التواصل الإنساني المعروفة والتجمعات المرتبطة بالبيئة الثقافية والسياسية والاقتصادية وبين فضاء لا نعهد إليه سوى للقيام بفعل عقلاني خالص يفضي إلى رأي عام، فالأسواق والمقاهي وحمامات روما القديمة وساحات المدن ومناخ الفلكلور على عكس التصور المتداول في بحوث الصحافة ورسائل التأهيل الجامعي من غير الممكن لها أن تتقمص هوية الفضاء العمومي وسط الفوضى التي تصيب المعاني والحقائق واضطرابات السلوك في مجالها.

ولعل أهم القطع المفقودة في الصورة المفصومة للفضاء العمومي هي مسألة " الطبقة - التنوع " ذلك أن أزمة المفهوم تتقاطع مع الماركسية وإن وضعت الإكراهات جانبا مع تقدم العقلانية والحرية عليها، ما يفسر حركة ملفتة للنطاق النقدي إلى درجة " الإغراق " ..فالنظريات السياسية والثقافية " النسوية " رسمت أبعادا بنيوية جديدة لـ " فضاء عمومي جندري " ناشئ يساوي بين الجنسين عند سيلا بن حبيب ويعترف بالعدالة الكونية وأهلية كل الأطراف المشاركة في النقاش العام كما أشارت إليه في حديثها عن السلطة والعقلانية باعتبارهما الشرعية التي تضمن مأسسته (Benhabib and Dallmayr, 1990 : 52) " فضاء عمومي عابر للأوطان " أما بالنسبة للفيلسوفة الأمريكية نانسي فريزر Nancy Fraser فيتأسس من إرادة الجماهير فوق الوطنية المعرضة للإساءة ومخاطر تهديد السيادة أو التوسع على القيم المحفوظة في القانون الدولي، مع إرساء آليات سياسية مثيلة بالاتحاد الأوروبي لتوطينه والتعبئة لرأي عام قومي (Tyulenev, 2018 : 26) وكما لم يفعل يورغن هابرماس في إنقاذ نطاق " وستفاليا " من الكسل التنظيري قدمت نانسي فريزر بديلا صرف الانتباه عن الاعتبارات الكلاسيكية للمجتمع السياسي.

تعرض التفكير في الفضاء العمومي مع تعلقه بالمشروع البورجوازي لحملة تفكيك تنامت عن الشك من كبح استطالة يد السلطة على وظيفته والفصل بين هويته النقدية والوطنية، ولأنه بات مهددا بالاضمحلال السياسي (Fraser, 2005 : 148) كما تقول نانسي فريزر في مؤلفها Qui est ce que la justice social ? .

ليس بعيدا عن مدرسة فرانكفروت انطلقت البدائل في مواجهة التعثر النقدي وهذا ما انعكس في تشكيل " فضاء عمومي معارض " لدى أوسكار نيغث Oskar Negt لمناصرة المعسكر البروليتاري أو المتحدثون النزهاء المستقلون عن التنظيمات المتغلبة من جمهرة العمال ذوي التجربة المتمردة عن التقاليد البورجوازية وتراكمات الشرعية الكلاسيكية (Negt, 2007 : 21) .

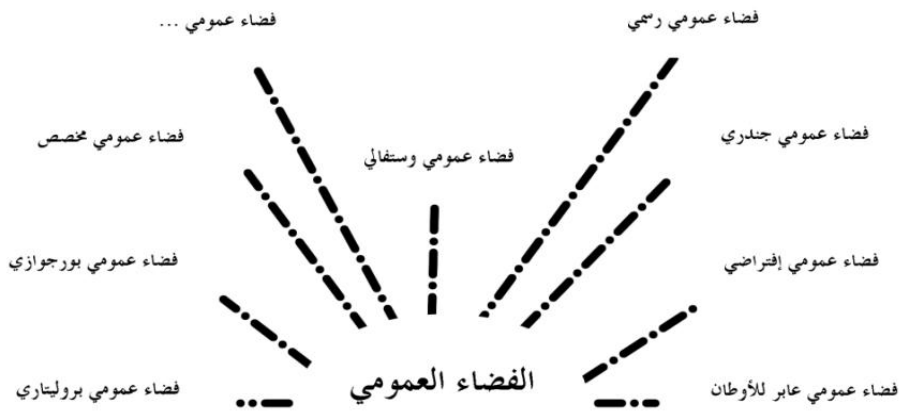

يوضح المخطط البيئة الجديدة - تفكك الفضاء العمومي

إن إضفاء الطابع - الرسمي - على الفضاء العمومي مع ارتباط جمهوره بوسائل إعلام تقود الرأي العام إلى التعبئة للمصلحة الوطنية – الدعاية – أصبح تصورا يصعب على التيار الساخن للمدرسة النقدية تقبله ولا عجب في مواجهتهم للعروض الطوباوية المهددة للتقليد النقدي للمدرسة تحت التيار الكانطي.

II. خاتمة:

أدّى البناء النووي للفضاء العمومي المرتبط بالتفكير الكلاسيكي الذي تبنته مدرسة فرانكفورت في أولى بدايات نشاطها إلى انتعاش تداولية لا تتفق مع حدود الديمقراطية نقيضا لما طورته المدرسة نفسها في إعادة تأسيسها لهذا المفهوم، ورغم الانفتاح على التمييز بين العقل العام والعقل الخاص إلا أن الانفلات النقدي بتمكنه من استيعاب البراهين المتمردة على وحدة المفهوم جعل الفضاء العمومي يعيش مرحلة جديدة من " إتيقا التفكك " حاولنا تتبعها في مقالنا هذا، تتصور فضاءات متقاطعة ومنحلة تنكص تماسك النسيج داخله، وتهدد وظيفة المدرسة إن هي فشلت في إثارة توازن نقدي لما بعد الفضاء العمومي.

الإحالات والمراجع:

- تشومسكي نعوم، اللغة ومشكلات المعرفة محاضرات ماناجوا، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، ط1، (المغرب، دار توبقال، 1990)، ص 191
- مصدق حسن، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفروت – النظرية النقدية التواصلية، ط1، (المغرب، المركز الثقافي العربي، 2005)، ص 16
- هابرماس يورغن، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، مراجعة إبراهيم الحيدري، ط1، (ألمانيا، منشورات الجمل، 2001)، ص ص 232-233
- هابرماس يورغن، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة عمر مهيبل، ط1. (الجزائر، منشورات الاختلاف، 2010)، ص 51
- هابرماس يورغن، المعرفة والمصلحة، مرجع سابق، ص198
- هابرماس يورغن، بعد ماركس، ترجمة محمد ميلاد، ط1.(سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2002)، ص 75
- هابرماس يورغن، مستقبل الطبيعة نحو نسالة ليبرالية، ترجمة جورج كتوه، مراجعة أنطوان الهاشم، ط1، (لبنان، المكتبة الشرقية، 2006)، ص 58
- Benhabib Seyla and Dallmayr Fred, The Communicative Ethics Controversy, ed01, (United States of America, Deker Corporation, 1990), p52
- Fraser Nancy, Qui ‘est-ce que la justice social ? Trad par Estelle Farrarese, ed01,(France Paris, Edition la devouvert, 2005), p148
- Habermas Jürgen, Theorie und Praxis Sozialphilosophische Studien, ed01, (Frankfurt Germany, Suhrkamp, 1978), p110
- Habermas Jürgen and Luhmann Niklas, Theorie-Diskussion, ed01, (Germany, Nomos Verlag. 1971), p251
- Habermas Jürgen, Theorie des kommunikativen Handeins, 2nded, Vol1,(Frankfurt Germany Suhrkamp, 1982),p372
- Habermas Jürgen, Der philosophische Diskurs der Moderne, ed01, (Frankfurt Germany Suhrkamp, 1985), p63
- Negt Oskar, L'espace public oppositionnel, Trad par Alexander Neumann, ed01, (France Paris, Edition Payot, 2007), p21
- Tyulenev Sergey, Translation in the Public Sphere, ed01,(United Kingdom, Palgrave, 2018), p26
- W Adorno Theodor and Horkheimer Max, Dialectic of Enlightenment Philosophical Fragments, Ed by Gunzelin Schmid Norr , Trans by Edmund Jephcott, ed01, (Stanford Kalifornia, Stanford Uiniversity Press, 2002), p23
- Davies Harry, (11 December 2015), Ted Cruz using firm that harvested data on millions of unwitting Facebook users, The Guardian, Retrived from https://www.theguardian.com